

ابراهيم بن المهدي : حياته السياسية

إنما هذه شخصية موهوبة عبت في قصور خلفاء الدولة العباسية : هارون الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم ، وانتشر شذاها الذكي في مجالس الأئس والسر والطرب ، تشدو بأعذب صوت ، وتفرد بأشجى نغم .

وقد حفلت حياة هذه الشخصية العبقريّة بالطموح والإقدام ، وتفردت بالشجاعة والمغامرة ، واتسمت بتعدد المواهب وخصبها ، وامتازت بتسّم ذروة الفن والفصاحة . فكانت زينة المحافل ، ونديمة المجالس ، وريحانة النفوس الصادية لارتشاف مناهل الفن والجمال ، وبهجة الأرواح الضمأى إلى همسات الوجد والغرام .

أنجب العصر العباسي الأول هذه الشخصية الفذة في مناحي حياتها الصاخبة ، الغارقة في أحضان الهوى ، العابثة في مجالس الخلفاء والقيان ، الساخرة من أحداث الزمان ، الضاحكة من الهموم والأحزان . فكانت ألد شخصية وأغربها ، وأدعاهها إلى الدرس والبحث والتحليل ؛ تلك شخصية إبراهيم بن المهدي اللحن الحائر الرائع .

أمه « شكلة » مولدة . كان أبوها من أصحاب المازيار ، يدعى شاه أفرند ، قتل مع المازيار ، وسيت ابنته « شكلة » وأرسلت إلى المنصور ، فوهبها لـ « حياة » أم ولده ، فربتها عندها . ثم بعثت بها بعد ذلك إلى الطائف ، فترعرعت هناك وتقصحت . فلما شبت ، أعيدت إلى « حياة » . أصلها من طبرستان ، وقيل إنها ابنة ملك طبرستان .

و ذات يوم ألصرها المهدي عندها ، فأعجب بها ، فطلبها منها ، ففتحته إياها . وما لبثت أن ولدت منه إبراهيم عام ١٦٢ هـ . وهو ينسب إليها ويدعى إبراهيم ابن شكلة . وكان مثلها حالك السواد . وقد لقب بالتنين لعظم جنته وضخامتها .

تولى إبراهيم بن المهدي : في الثامنة عشرة من عمره ، إمرة جند دمشق سنتين كان خلالها مثال الحاكم الصالح .

على أن الرشيد عزله لهفوة بدرت منه ، وهو الفتى الحاكم ، وعين مكانه سليمان بن المنصور بن المهدي . غير أن الفتنة نشبت في أثناء حكم سليمان ، ولم يطمعه أحد من الشعب .

وغضب الرشيد على إبراهيم ، وحبسه مائة يوم ، ولم يسمح له بدخول قصره ، كما حظر على جعفر بن يحيى أن يذكر اسمه أمامه سنة بيد أن الأيام كانت كفيلة بعودة الصفاء والمودة بين هارون الرشيد وإبراهيم ، فكان الرشيد أيقن أنه من العدل أن يفكر في جفائه لأخيه ، فغيره أن يختار مدينة يوليه عليها ، فإذا بإبراهيم يحن إلى دمشق ومغانها .

عقد لإبراهيم على إمرة دمشق ثانية ، ورحل إليها عام ١٨٦ معزراً . وبعد زمن أقاله الرشيد متذرعاً بجبنه ، وولى مكانه العباس بن محمد بن إبراهيم الإمام . ولكن مالبت الرشيد أن ألغى ولاية العباس بن محمد ، وأعاد إبراهيم إلى ولايته ، وأثنى على حكمته ، وأجازته بثلاثين ألف دينار . وبقي إبراهيم في ولايته الثالثة على دمشق أربع سنوات ، قفل بعدها راجعاً إلى بغداد ، وهو في ريق الشباب ، وقد اكتسب من الحكم خبرة ودراية انتفع بهما في حياته المنعممة بالحوادث الجسام .

لما استقر الأمر للمأمون ، وولى الخلافة عام ١٩٨ ، بعد ما استعرت الحرب بينه وبين أخيه الأمين ، وردت في الثماني من رمضان سنة ٢٠١ رسالة على عيسى ابن محمد بن أبي خالد ، من الحسن بن سهل ينبئه فيها بأن المأمون بحث عمن يليق أن يكون ولي عهده ، فلم يجد في بني العباس وبني علي أفضل وأروع وأعلم من علي بن موسى بن جعفر بن محمد ، وقد دعاه الرضى ، وأمره أن يخلع الثياب السود شعار بني العباس ، وأن يرتدى الثياب الخضراء شعار بني علي ، وأن يأمر أصحابه والجند والقواد وبني هاشم وأهل بغداد بأن يبايعوه ، وأن يتخذوا الخضرة في ملابسهم وأعلامهم .

فقبل البعض ذلك ، ورفض البعض الآخر أن يخرج الأمر من ولد العباس ،

واحتدم الجدل بين أهل بغداد أياماً ، واضطربت الفتنة ، واستعرت سورة الغضب بين الشعب ، فناوءوه وقاؤموه .

اجتمع زعماء الثورة وبحثوا في قضية المأمون ، فأنكروا عليه صنيعة ، فإذا بهم يجمعون على خلعه ، وتنصيب منصور بن المهدي خليفة ، ودعوه المرتضى ، وسلموا عليه بالخلافة ، ولكنه أبى ذلك . فعمدوا إلى أخيه إبراهيم ابن المهدي ، فبايعوه بالخلافة ، ولقبوه « المبارك المنير » وقلدوا ابن أخيه إسحاق بن موسى بن الهادي ولاية العهد . وكان ذلك في ٢٥ ذي الحجة عام ٢٠١ .

لما انتزع إبراهيم بن المهدي الخلافة من المأمون ، أوفد إليه المأمون الحسن ابن سهل في جيش ، فثبت له إبراهيم وقاتله فهزمه . ودارت رحى الحرب بين إبراهيم وأهل بغداد ، وبين أهل الكوفة والسواد ، فتغلب إبراهيم عليهم وعسكر بالمدائن .

واستعرت الحرب سجالاً بين جند المأمون وجند إبراهيم ، وانتشرت الدسائس والمؤامرات ، وانقسم أهل بغداد إلى حزيين .

ومازال إبراهيم بن المهدي في بغداد يدعى « أمير المؤمنين » ويخطب باسمه في بغداد والسواد والكوفة ، إلى أن كان علي بن موسى الرضى ولي عهد المأمون يأكل عنباً ، إذا به يموت لوفرة ما تناوله منه . فترل موته على المأمون نزول الصاعقة ، واتابه جزع عظيم .

وفي موت ولي عهده الذي احتدمت الحرب من أجله ، ونبت السواد ، ولبس الخضر بسببه ، أدرك المأمون أن لا سبيل له إلا أن يسلك سياسة الحكمة والمرونة . فإذا به يكتب بوفاته إلى الحسن بن سهل ، وإلى بني العباس وأهل بغداد والموالي ، وأنهم إنما تقموا عليه لجعله ولي عهد . أما وقد زال السبب ، فإنه يرغب إليهم أن يدخلوا في طاعته ، ولسكنهم جباهوه بالرفض وأنهم لا يقبلون عن إبراهيم بن المهدي بديلاً .

وبقيت الحرب مضطربة زمناً بين المأمون وإبراهيم بن المهدي . وما زال إبراهيم يحمّد الفتن ، ويقف في وجه خصومه ، ويدافع عن خلافته ، حتى انتشرت الفوضى . وقد نظم عيسى بن محمد بن أبي خالد مؤامرة على تسليم إبراهيم

إلى خصومه . وكان يتظاهر بالطاعة لإبراهيم والإخلاص له . ولما نفي هذا الخبر إلى إبراهيم كتم الأمر في نفسه .

وانضم بعض أنصار إبراهيم من القادة والجند إلى حميد الطوسي ، وسلموه المدائن ، كما هزم جند حميد جند إبراهيم وطاردوهم .

ولما رأى خاصة أهل بغداد انتصار حميد ، انضم إليه الفضل بن الربيع وعلى ابن ريطة . ثم بدأ العقد ينفرط من حول إبراهيم ، حيث تحول عنه الهاشميون والقواد إلى حميد تبعاً .

وهنا أدرك إبراهيم من انصراف أنصاره من حوله ، أنه خسر المعركة ، وأنه لا شك خاسر الخلافة . وإذا ببضعة من القواد يفاوضون على بن هشام على تسليم إبراهيم بن المهدي إليه . فلما علم إبراهيم بخيانتهم وخيانة قومه وأصحابه ، وأنهم قرروا تسليمه ، ولم يبق له نصير أو صديق ، دأب على ملاطفتهم في حكمة ولين .

وفي عيد الأضحى عام ٢٠٣ سار موكب إبراهيم بن المهدي إلى الجامع ، مرتدياً زي الخلافة ، تحف به حاشيته بأبهة وعظمة ، وصلى بالناس صلاة العيد . وهو يشاهد معسكر على بن هشام . ثم عاد إلى قصر الرصافة ، واجتمع فيه بمؤيديه وأنصاره ، حيث درس وإياهم الموقف الراهن ، فوجد أنه فقد الخلافة ، ولا مناص له من الفرار من وجه المأمون ، كي لا يبطش به ، لأن أقل عقاب له كان القتل .

انسل إبراهيم بن المهدي من قصر الخلافة إلى داره ، حيث اختفى في ليلة الأربعاء في ١٧ ذي الحجة سنة ٢٠٣ .

وحاصر المطلب وابن الساجور وأصحابهما دار إبراهيم ، وأبلغوا ذلك إلى حميد الطوسي وعلى بن هشام ، فقدموا ودخلا دار إبراهيم ، فوجدها خالية منه . فأعلموا المأمون بذلك .

وكانت خلافة إبراهيم بن المهدي سنة وأحد عشر شهراً واثنى عشر يوماً ، قضاه في إخماد الفتن والثورات ، ومحاربة المأمون في سبيل الاحتفاظ بالخلافة وتنازع البقاء .

دخل المأمون بغداد في ١٦ صفر عام ٢٠٤ وكان مرتدياً هو وأصحابه الخضره ،

كما كانت أعلامهم خضراً ، وثياب بني هاشم وقواده وجنده وأهل بغداد خضراً . وبعد مرور ثمانية أيام اتفق معه بنو العباس على تبذ الحضرة ، والعودة إلى ارتداء السواد .

وكان من الأسباب التي ساعدت المأمون على إعادة أهل بغداد إلى طاعته ، أنه أمر بإعفائهم من ألف درهم من خراجها . وهكذا استمالهم إليه وملك قلوبهم مرة أخرى ، مما دل على مرونته السياسية ، وحكته الإدارية .

ومالبت المأمون أن استأنف إدارة شؤون الدولة بما عرف عنه من الحكمة والحلم .

غير أن العلويين عمدوا إلى المشاغبة عليه ، بعد أن ضحى بما ضحى في سبيلهم . فلما رأى منهم ذلك أمرهم بهجر الحضرة وارتداء السواد ، ومنعهم من الدخول عليه . إن ما تحلى به المأمون من سماحة الخلق ، ورحابة الصدر ، والحلم القصى ، وحب التسامح ، وميله إلى التساهل ، وكرهه للانتقام ، وشغفه بالعرفو ، أصبح مضرب المثل . فقد عفا عن الفضل بن الربيع وزير الأمين ، ثم أعقبه بعفوه عن عيسى وزير إبراهيم بن المهدي ، وكان هو والفضل بن الربيع من زعماء الانقلاب عليه .

وفي ربيع الآخر سنة ٢١٠ اعتقل إبراهيم بن المهدي ، وهو متنكر بزي امرأة . وروى أبو المحاسن بن تغري بردي يصف عفوا المأمون عن عمه ابراهيم بقوله : « ... وله في هروبه واختفائه وكيفية الظفر به أمور وحكايات مهولة ؛ منها انه لما وقف بين يدي المأمون ، شاور في قتله أصحابه . فالكل أشاروا بالقتل ، غير أنهم اختلفوا في القتلة ؛ فالتفت المأمون إلى أحمد بن خالد وشاوره ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن قتلته فلك نظير ، وإن عفوت عنه ، فمالك نظير . فأنشد المأمون :
فلئن عفوت لأعفون جلالاً ولئن سطوت لأورهن عظمى !
فكشف ابراهيم بن المهدي رأسه وقال : الله أكبر ! عفا عني أمير المؤمنين ؟ فقال المأمون : يا غلامان ، حلوا عن عمي وغيري وامن حالته ، وجيئوني به ... »^(١)
وفي مشول ابراهيم بن المهدي بين يدي المأمون ، وفي الحوار الذي دار بينهما ،

بلاغة وطرافة ومتعة تشف عن فصاحة ابراهيم وتوبته، وعن حلم المأمون وكرمه . حدث ابن عساكر قال «... ولما طال عليه الاختفاء ضجر ، فكتب إلى المأمون : «وليُّ الثأر محكمٌ ، والعدل أقرب إلى التقوى . ومن تناوله الاغترار بما مدله من أسباب الرجاء ، فمن عادية الدهر على نفسه . وقد جعل الله أمير المؤمنين فوق كل ذي عفو ، كما جعل كل ذي ذنب دونه . فإن عفا بفضله ، وإن عاقب فبحقه » . فوقع المأمون على الكتاب : « القدرة تذهب الحفيظة ، وكفى بالندم إنباة وعفو الله أوسع من كل شيء » . ولما دخل على المأمون قال :

إن أكن مذنباً فخطأ ت ، فدع عنك كثرة التائب

قل كما قال يوسف لبني يعقوب لما أتوه : لا تثريب

فقال له المأمون : لا تثريب ، وقال له أيضاً لما أخذه : ذنبي أعظم من أن يحيط به عذر ، وعفوك أعظم من أن يتعاضمه ذنب . فقال له المأمون : حسبك ! فإن قتلناك فلله ، وإن عفونا فلله... (١) « بل أعفو يا إبراهيم ، فكبر إبراهيم وخرّ ساجداً (٢) » .

إن عفو المأمون عن عمه ابراهيم بن المهدي ، كان خيراً ومكرمة وذكراً عاطراً مدى الدهر . وقد ضرب به مثلاً عالياً في الحلم والتساهل والتسامح ورحابة الصدر ونبل الخلق .

ومن أبلغ ما دار بين المأمون و ابراهيم بن المهدي ما حدثت الفضل بن طيفور . «... وقال المأمون ل ابراهيم حين صفح عنه : لو لم يكن في حق أبوتك حق الصفح عن جرمك ، لبلغت ما أملت بتنصلك في لطف توصلك . وكان ابراهيم قال له : إنه إن بلغ جرمي استحلال دمي ، فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلغان عفوه . ولي بعدهما نفع الإقرار بالذنب ، وحق الأبوة بعد الأب... قال المأمون : ... لو علم أهل الجرائم لذتي في العفو ما حمدوني عليه ، ولا أنابوا من ذنوبهم : فقال ابراهيم إما متمثلاً وإما مخترعاً :

أمير المؤمنين عفوت حتى كأن الناس ليس لهم ذنوب (٣)

وأضاف ابن العميد قوله : «... فقال له المأمون : إني شاورت في قتلك ،

(١) التاريخ الكبير ج ٢ ص ٢٧٢ و ٢٧٣ . (٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ١٧٦

(٣) كتاب بغداد ج ٦ ص ١٩٥ .

فأشاروا بقتلك ؛ إلا أنني وجدتُ قدرك فوق ذنبك ، فكرهتُ القتل^(١) .
وعاد إبراهيم إلى مجلس المأمون عزيزاً مكرماً ، فنادمه المأمون ولاطفه .
ثم طلب إليه أن يغني ؛ فاعتذر بأنه نذر الله عند خلاصه نبذ الغناء . فألح عليه ،
وأمر بوضع العود في حجره فغنى :

هذا مقام مشرد خربت منازلَه ودوره
نمت عليه عداوته كذبا ، فعاقبه أميره

ثم أمر المأمون بإعادة ما حجزه له من الأموال والضياع والعقار والدور
والدواب ، كما أعاد مرتبته ، وأجازَه بعشرة آلاف دينار فوراً ، وانصرف مكرماً
على خيل المأمون .

وهكذا أنقذ بيان إبراهيم بن المهدي حياته من القتل ، وبرهن ذلك على
كرم المأمون وسماحة طبعه ، وتقديره للأدب وأربابه . فلولا بلاغة إبراهيم
وسرعة خاطره ، وذلاقة لسانه ، وقوة حجته ، ومضاء عزيمته ، لبطش به
المأمون ، وجعله عبرة لسواه .

منير الحسامي

(١) تاريخ المسلمين ص ١٣٦